المُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيّباً مباركاً فيه، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنَة عرشه، ومداد كلماته، والصلاة والسلام على سيدّنا محمّد الفاتح لمَا أُغلق، والخاتِم لما سبق، والنّاصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط الله المستقيم، وعلى آله وأصحابه حقّ قدره ومقداره العظيم

أهميّة البحث

أما بعد فالخوف من الله صفة المؤمنين، وسمة الصالحين، ودرب الطائعين، وطريق الخاشعين، وسلاح النّاجين وزاد المتّقين، من تمسّك به فاز، ومن ابتعد عنه خسر، ومن جعله أمامه نجا، ومن رماه وراء ظهره هلك، بشّر الله الخائفين منه بالآخرة من عذابه، وجعل جزاءه النعيم في الجنّة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41] .

والذين يخافون الله يؤمنون برسالاته، ويعرفون قدره، ويصدّقون باليوم الآخر، ويوقنون بما يُقام فيه من ميزان دقيق

وحساب عادل، وما يناله الطائعون فيه من نعيم مقيم، وما يلقاه العاصون فيه من عذاب أليم؛ ولذلك فهم يحذّرون الكفار من كفرهم، والمشركين من شركهم، والعصاة من فساد عقيدتهم وسوء أفعالهم وأخلاقهم، وتردّيهم في الرذائل، وينكرون عليهم قسوة قلوبهم، وتحجر مشاعرهم، ومقابلة نِعم الله عليهم بالجمود وارتكاب المعاصي، ويخافون عليهم من تماديهم في مخالفة أوامر خالقهم لأنه لا إفلات من الحساب، ولا نجاة من العقاب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 131-135].

والخائفون من الله تبكي أعينهم، وتقشعر أبدانهم وجلودهم كلّما ذكروا الله في خلواتهم، أو سمعوا ذكره من غيرهم، وذلك مخافة تقصيرهم في حق من حقوق الله، و خوفاً من حسابه وعقابه.

أسباب اختياره:

يعاني المسلمون اليوم من انهزامات متتالية وانقسامات عاتية، تعود أسبابها لنقطتين رئيستين:

1- تخطيط قوى الشر في الأرض، المتمثل باليهود والنصارى والكتل الإلحادية والعلمانية اليسارية، لإزالة شأفة الإسلام والقضاء عليه نهائياً، فاجتاحت العالم الإسلامي بحملات منظمة مدروسة على جميع الصُّعُد: سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وثقافياً ودينياً، وقد تركت هذه المخططات آثارها المدمّرة السيئة على العالم الإسلامي، مما أدى إلى تفرّق المسلمين أفراداً وجماعات، فتداعى الجسد المسلم لغياب الرأس الجامع، وأُصبنا بالوهن والعجز، وأصبحنا في آخر الركب، ننتظر العون والمدد.

2- بُعد المسلمين عن تطبيق دينهم الكامل، وانحصر التديّن في العبادات فقط، وصار الدين شأناً فردياً شخصياً خاصاً، فمن شاء التزم العبادة، ومن لم يشأ فله الحرية، وتعطلت الشرائع والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي أمرنا الحق عز وجل بتطبيقها، وفق دستور إلهي محكم منزّل من ربّ كريم على قلب الحبيب محمد ﷺ، النبي الرحيم، وهو القرآن الكريم، ولكن المسلمين هجروا القرآن، فهجرهم ربّ القرآن.

وممّا دفعني إلى اختيار بحثي هذا، واقع المسلمين

المرير، والإشارة إلى نقطة التغيير والإصلاح، وهي العودة إلى الدين الحنيف كاملاً، والخوف من الله تعالى.

الكتابات السابقة فيه:

رجعت إلى المكتبة الإسلامية لأبحث عن مصادر لبحثي، فوجدْتُها على نوعين: أحدهما خاص بموضوع الخوف، والآخر عام، قد ذكر الخوف ضمناً. أما المصادر المتخصصة التي أفردت موضوع الخوف من الله عز وجل فكان أهمها كتاب «**الخوف من الله**» لابن أبي الدنيا، وهو كتاب يجمع كل ما قيل حول هذا الموضوع من آيات وأحاديث مرفوعة وموقوفة، وآثار عن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وقصص لكبار التابعين وأتباعهم حول موضوع الخوف. ومنها كتاب «**الخوف والرجاء**» لصفوت عبد الفتاح محمود وهو كسابقه.

وأما الكتب العامة فكان أهمها كتاب «**إحياء علوم الدين**» للإمام الغزالي، الذي تكلم عن الخوف بتوسّع، وشرح أقسامه وأنواعه وآثاره، وكيفيّته، وكل ما يتعلق به. وكذلك كتاب «**رسالة المسترشدين**» للحارث بن أسد المحاسبي، وكتاب «**الرسالة القشيرية**» للإمام القشيري وكذلك كتاب «**الحكم العطائية**» لابن عطاء الله السكندري وشرحه لابن عجيبة.

خطّة البحث:

سوف أقسّم بحثي هذا وفق المخطط التالي:

المقدّمة: وتتضمن ما يلي: أهمية البحث، أسباب اختياره، الكتابات السابقة فيه، خطّته، منهجيته، الشكر والتقدير.

التمهيد: ويتضمن التعريف بمفاتيح العنوان.

الفصل الأول: مخافة الله في الكتاب والسنة.

ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: مخافة الله في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مخافة الله في السنّة النبوية الشريفة.

الفصل الثاني: مخافة الله عند السّلف الصالح.

ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: مخافة الله عند الصحابة رضي الله عنهم.

المبحث الثاني: مخافة الله عند علماء السّلوك.

الفصل الثالث: حاجة المسلمين اليوم إلى مخافة الله.

ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: واقع المسلمين الديني والأخلاقي.

المبحث الثاني: أهمية مخافة الله في النهوض بالمسلمين من واقعهم السّيء.

opeikanda.com

منهجيّة البحث:

سوف أعتمد في بحثي هذا، المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فهناك إشكالية موجودة في المجتمعات الإسلامية في هذا الزمان، وهي بعد المسلمين عن دينهم وضعف الوازع الديني عندهم المتمثّل بعدم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ ، ومن عقابه الدينوي والأخروي.

وسأحاول في هذا البحث معالجة هذه الإشكالية بدراسة واقع المسلمين واستقراء حالهم الذي وصلوا إليه، ودراسة الأسباب المؤدّية إلى ضعفهم وتقهقرهم، وتحليلها، وبيان العلاج المناسب والحلّ الجذري لمشكلاتهم، وهو العودة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإتباع دينه والخوف منه.

وسوف أخرّج الآيات القرآنية من القرآن الكريم، وأخرّج الأحاديث النبوية الشريفة من مصادر السّنة الصحيحة، وأُبيّن حكم الأئمّة عليها وبيان درجتها من الصّحة، كما سوف أعرّف بالأعلام الواردة بالبحث، بالرجوع إلى تراجم الرجال المختصّة، وسأعرف بالكلمات الغريبة، والمصطلحات العلميّة بالرجوع إلى معاجم اللغة والاصطلاحات.

الشكر والتقديـر

أتوجّه بالشكر والتقدير للرئيس الأعلى لجامعة بيروت الإسلامية، **سماحة المفتي الشيخ الدكتور محمد رشيد راغب قباني** (حفظه الله) على عنايته وإشرافه الدؤوب للجامعة الموقرة وإلى عميدها **الشيخ الدكتور أنس جميل طبارة** الذي يعمل على تطويرها والمحافظة عليها، وكذلك أمين سرها الشيخ **الدكتور علي الطويل** الذي يعمل بصمت لازدهارها لتصبح في مصاف الجامعات الكبرى وتساهم في نشر هذا الدين والحمد لله أولاً وآخراً على ما فتح به وأنعم.

وأخصّ بالشكر الشيخ **الأستاذ الدكتور يوسف المرعشلي** الذي عرّفني الوصول إلى محبة الله والرسول، على إشرافه ومتابعته لسير البحث بكل جهد وإخلاص كما أخص بالشكر **زوجي ورفيق دربي سمير السردوك** واضع الحجر الأساس في حياتي، وصلى الله وسلم وبارك على معلّم الخير سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه ونهجه إلى يوم الدين.

obeikandi.com

التمهيد

أولاً: التعريف بمفاتيح البحث

تعريف الحكمة لغةً واصطلاحاً:

الحكمة لغةً: قال الخليل بن أحمد: (الحِكمةُ مَرْجعُها إلى العَدلِ والعِلْم والحِلْم. يُقالُ: أَحْكَمَتهُ التَجَاربُ إذا كان حَكِيماً. وأَحْكَمَ فلانٌ عَنّي كذا أي: مَنَعَهُ)[1].

الحكمة اصطلاحاً: قالَ التَّهَانَويُّ: (الحِكْمَةُ: العِلْمُ بحقائِقِ الأشْياءِ على مَا هي عَلَيْه، والعملُ بمُقتضاها ولهذا انْقَسَمْت إلى عِلمِيّة وعَمَليةٍ، يُقالُ: هي هيئةُ القوةِ العَقْليةِ العِلْميّة، وهذه هي الحِكْمةُ الإلهيّةُ، وقوله تَعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:12] فالمرادُ به حُجّةُ العَقْلِ على وِفْقِ أَحَكَامِ الشّريعَةِ، وقِيْلَ: الحِكْمةُ: إصابةُ الحَقِّ بالعِلْمِ والعَملِ، فالحِكْمَةُ من الله: مَعْرِفةُ الأَشْياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومَنْ الإنسانِ: مَعْرِفَتُهُ وفعلُ الخَيْراتِ)[2].

---

(1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 170هـ)، كتاب العين، تح: د. هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م)، 1/ 343، مادة (حكم).

(2) التهانوي، محمد علي بن علي (ت 1158هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون، دار =

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف الخوف لغةً واصطلاحاً:

الخوف لغةً: قال الفَراهيدي: (الخَوْفُ: الخَافَةُ تَصْغيرُهَا خُوَيْفَةٌ، واشْتِقاقُها من الخَوْفِ: وهي جُبَّةٌ يَلْبَسُهَا العَسّالُ والسَّمَاءُ، والخَافةُ: العَيْبَةُ، ومنه التَّخْوِيفُ والإخَافَةُ والتّخوُّفُ. والنَّعْتُ: خَائفٌ وهو الفَزَعُ. وتَقُولُ: طريقٌ يَخَافُهُ النَّاسُ. ومُخِيْفٌ يُخِيفُ النَّاسُ. والتَّخَوْفُ: التَنَقُّصُ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل:47] وقَدْ يُقّالُ: خَوَّفْتُ الرَّجُلَ، أي صَيّرْتُهُ بحِالٍ يَخَافُهُ النَّاسْ)[1].

الخوف اصطلاحاً: قَالَ التَّهَانويْ: (الخَوْفُ عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ هو الحَيَاءُ مِن المَعَاصِي والمَنَاهي والتَأَلُمُ منها، قال النبي ﷺ: «**إنِي أَخْشَاكُم لله وأتْقَاكُم لَه**» [2]. وأُوْحِيَ إلَى دَاوُودَ: «خِفْني كما يخافُ السَّبُعَ الفَارُّ». وقالَ: «مَنْ خَافَ الله خَافَهُ كُلُّ شيءٍ: كَذَا في الصَحَائِفِ، في الصّحِيفَةِ التّاسِعَة عَشَرَة) [3].

= الكتب العلمية، بيروت، لبنان) 1/ 509 مادة حكم).

(1) الفراهيدي، كتاب العين، 1/ 452 (مادة: خوف).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح (5063)، 1/ 1115.

(3) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 2/ 60.

obeikandl.com

الربط بين التعريفين: قصدت في هذا البحث بيان أن الخوف من الله عزّ وجل هو رأس الحكمة وأنه المقصود الأعظم من أخلاق المسلم، وسلوكه مع الله سبحانه، لأنّ به ينضبط سلوكه الشخصي وسلوكه العائلي والاجتماعي وبذلك يتحقّق صلاح الفرد والمجتمع.

ثانياً: أهمية الخوف في تزكية النّفس

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾ [الشمس:9-10]. يخاطب الله عزّ وجلَ في هذه الآية عباده مبيّناً لهم تحقّق نوال الفلاح بتزكية النفس، وذلك بطاعة الله، وتطهيرها من دنس المعاصي والآثام؛ وتحقق الخيبة والخسران من حَقَّرَ النفس بالكفر والمعاصي، وأوردها موارد الهلكة. وكان النبي صلى الله عليه وسلّم فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها»[1].

(إنّ علم تزكية النفس مِنْ أَجَلَ العلوم قَدْراً، وأعظمها مَحَّلاً وفخراً، وأرفعها عند المليك ذِكْراً، فهو عِلْمٌ يُعْرَفُ به

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند: 4/ 371: ضمن مسند زيد بن أرقم، ح (18809).

أحوال النفس، مَحْمُودُها ومَذْمُومُها، وكيفيّة تطهيرها وتَخْلِيَتُها عن المَذْمُوم منها، وتَحْلِيَتُها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السّلوك والسّير إلى الله تعالى، والفرار إليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: 50][1].

وهذا العلم فرض على كل مسلم بدليل ما ورد في الكتاب والسُّنّة وأقوال العلماء:

أ - من الكتاب:

1 - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33].

2 - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: 151].

ب - من السُّنة:

كل الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرّياء والحسد، وأيضاً الأحاديث الآمرة بالتحلّي بالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيّبة والخوف من الله، ونذكر باقة عطرة منها:

---

(1) المرعشلي، يوسف، تزكية النفس، (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م)، ص: 5.

obeikandi.com

* قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»[1].

* قال رسول الله ﷺ: وحوله عصابة من أصحابه: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفّى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه**» فبايعه الصحابة على ذلك[2].

* قال النبي ﷺ: «**إياكم والظّن، فإنّ الظّن أكذَب الحديث، ولا تَجَسّسُوا، ولا تَحَاسَدوا، ولا تَدابَروا، ولا تباغضوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً**»[3].

* وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ح (13) (دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب 11، ح (18).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: ما ينهي عن التحاسد والتدابر، ح (6064).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان، ح (9).

obeikandl.com

ج - وأما أقوال العلماء:

منها قول للفقيه الكبير العلاّمة ابن عابدين[1] في «حاشيته» الشهيرة: «إنّ علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عني، ومثلها غيرها من آفات النفوس، كالكبر والشّح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء، والخيانة والمواصفة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من «الإحياء»[2]، وإزالتها فرض عيْنيّ، ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشرّ يقع فيه»[3].

ويقول الشُّرنْبُلالي[4] صاحب «مراقي الفلاح»: لا تنفع

---

(1) **ابن عابدين**: هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره، ولد سنة 1198 هـ وتوفي سنة 1252هـ، من أشهر مؤلفاته، ردّ المحتار على الدر المختار المسمى حاشية ابن عابدين. أنظر (حلية البشر، للبيطار، 3/ 75 وروض البشر للحنبلي. ص: 220).

(2) كتاب ربع المهلكات من كتاب «إحياء علوم الدين» لحجّة الإسلام الإمام الغزالي، قال فيه: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلّم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه.

(3) حاشية ابن عابدين المسماة ردّ المحتار على الدّر المختار شرح تنوير الأبصار، 1/ 31.

(4) **الشرنبلالي**: هو حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي المصري، فقيه حنفي مكثر من التصنيف، نسبته إلى شبرى بلولة (بالمنوفية) نشأ بها ودرس في الأزهر، من كتبه «مراقي الفلاح». انظر (المجموعة الناجيّة - خ - وخلاصة الأثر 2/ 28، وفهرست الكتبخانة 3: 7-28).

الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة، بالإخلاص، والنّزاهة عن الغلّ والغشّ والحقد والحسد، وتطهير القلب عنها سوى الله من الكونين، فيعبده لذاته لا لعلّة، مفتقراً إليه وهو يتفضل بالمنّ بقضاء حوائجه المضطر بها عطفاً عليه، فتكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد، لا يسترقك شيء من الأشياء سواه، ولا يستملكُ هواك عن خدمتك إياه»[1].

نستخلص من هذه الآثار، أن داخل الإنسان ينعكس على ظاهره، فإن كان طيّب النفس، صافي القلب، عمل على تطهير دواخله من العيوب المنهي عنها الآنفة الذكر، ارتدى ثوب التقوى والوقار وأضحى مثالاً ونموذجاً مشرّفاً للإنسان المسلم المتحقق بدعائم الإسلام الثلاث وهي:

1 - **الإسلام**: ويعني تطبيق الشريعة الغرّاء من أوامر ونواهٍ وسنن ومكروهات.

2 - **الإيمان**: ويعني ما وقر في القلب وصدقه العمل.

3 - **الإحسان**: ويعني روح الإسلام وجوهره، وهو: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقد بيّن أمين الوحي جبريل عليه السلام بسؤاله للنبي ﷺ هذه

(1) الشرنبلالي، مراقي الفلاح بشرح نور الإيضاح، ص: 5.

Obeikandi.com

الدعائم الثلاث التي تمثل الدين الكامل مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وهذا نصّ الحديث الوارد في صحيح البخاري: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث**». قال: ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، و تصوم رمضان**». قال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

فالمسلم يجب أن يكون مسلماً بظاهره، مؤمناً بقلبه، محسناً بروحه، وهذا لا يتحقق إلاّ باتباع الشريعة والطريقة ونوال الحقيقة، وتزكية النفوس. أما ما وصل إليه المسلمون اليوم من الدرك من الانحطاط والضعف فهو نتيجة لفقدهم روح الإسلام وجوهره، ولم يبق فيهم إلاّ شبحه ومظاهره؛ فالقلة القليلة الباقية على الدين، تطبّق قشور الشعائر في العبادات المفروضة ولا تغوص في لبّها لتشْعُر بروحها وتحيا

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: 37، ح (50)، ص: 17.

بجذورها وتجاهد لمبدئها، وهذا ما يجعل اختراقها سهلاً لوسوسات الشياطين من الإنس والجنّ، وإطاعة النفس الأمّارة بالسوء دون امتلاك القدرة على مجاهدتها، واتباع الهوى لتحويل الوسائل الدنيوية إلى غايات، و الغايات إلى وسائل، ممّا أدى إلى انقلاب الموازين، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن حال المسلمين في أيامنا هذه قائلاً: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: ومِنْ قلَّة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدّوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن**». فقال قائل: وما الوهن؟ قال: «**حبّ الدنيا وكراهية الموت**»[1].

وقد وقع المسلمون فريسة سهلة المراس في براثن المخطط اليهودي الصليبي القديم العهد، آخذين بفكّ عُرى الإسلام عُروَةً عُرْوَة، وساعدهم على تنفيذ مخططهم العوامّ من المسلمين الذي يشكّلون الأكثرية من القاعدة الشعبية، وهم لا ينعمون بخطٍّ وافر من العلم والعقيدة السليمة، فكانوا أرضاً خصبةً لنشر المعتقدات الغربية، والإرهاصات الفكرية،

(1) سنن الإمام أبي داوود، حديث رقم (3745).

والتفلّت الخلقي، ثم أكمل الغرب المخطط الخبيث وأدخل التعليم المدروس على أسس فلسفية إلحادية، نظرية، شهوانية، لتجنح بالقاعدة الشعبية من أخلاق الدّين ومراقبة النفس إلى الإلحادية المادّية العبثيّة، مما أدّى إلى صراعات ونزاعات بين هذه الأكثرية والأقليّة المستمسكة بالعروة الوثقى.

ولكن بعد فترة من الزمن، وصلنا نحن في أيامنا الحالية إلى أجيال متحيّرة لا تنتمي إلاّ لنفسها وشهواتها، وقد طالت هذه الموجة العاتية المسلمين الملتزمين بأركان الإسلام الخمس ولا يعرفون سواها، ومن الطبيعي تأثّرهم وتشوّش آرائهم، لأنّ الإسلام وحدة متكاملة، لا ينفع أن تتجزأ إلى أجزاء، وذلك مثل الجسد الواحد، إذا أصيب جزء منه، تداعى له كل الأجزاء.

ومن هنا تظهر أهميّة علم التزكية والسّلوك ويتجلّى لنا بوضوح، أنّه روح الإسلام وقلبه النابض، إذ ليس هذا الدين أعمالاً ظاهرية وأموراً شكلية فحسب لا روح فيها ولا حياة.

فعلى المسلمين أن يرتدوا ثوب العزّة، ويعودوا إلى الدين الكامل روحاً وجسداً قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً، فإن الخالق

عزّ وجل أراد لنا أن نكون خير الأمم لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وأن تكون لنا القيادة والخلافة عندما نتحلّى بأخلاق الحبيب المصطفى ﷺ، ونتأسى به ونسير على خطاه، وننتهج نهجه فنحظى بالخيريّة، ونحظى بشرف الإضافة إلى اسم (طه المختار)، فنحن أمّة محمّد ﷺ.

ولا نكون على قدر هذه الإضافة إلاّ بالعمل بما علمنا، وتحلية النّفس بالصّفات الكاملة، كالتّوبة والخوف من الله عزّ وجلّ والتقوى والاستقامة والصّدق والإخلاص والزهد والورع والتوكّل والرّضا والتسليم والأدب والمحبّة والذكر والمراقبة.

وللصالحين بذلك الحظ الوافر من الوراثة النبويّة، في العلم والعمل.

قال الشّاعر:

قد رفضوا الآثام والعيوب ... وطهّروا الأبدان والقلوب
وبلغوا حقيقة الإيمان ... وانتهجوا مناهج الإحسان[1]

(1) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، للعلاّمة ابن عجيبة (على هامش شرح الحكم لابن عجيبة) 1/ 105.

ابن عجيبة: (شراح التصوف) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، الحسين =

(فعلم تزكية النفس والسّلوك هو الذي اهتمّ بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية والمالية، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي، وليس كما يظن بعض الناس قراءة أوراد وحلق أذكار فحسب، فلقد غاب من أذهان الكثيرين، أنّ التصوّف منهج عمليّ كامل يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة وذلك من الناحية الإيمانية السليمة والعبادة الخالصة والمعاملة الصحيحة الحسنة والأخلاق الفاضلة)[1].

وهنا تكمن أهمية مراقبة الله تعالى والخوف منه في كل كبيرة وصغيرة في حياتنا، لأنّ النفس البشريّة بحاجة إلى مكابح قوية حكيمة لتجنب جنوحها في مسالك الشهوات، وتحليتها بالصفات المحمدية التي تشابه الخلق الملائكي النوراني، وللترقي في هذا الطريق فإن رأس الحكمة مخافة

= الأنجري (1160/ 2224هـ) دفن ببلده أنجره من المغرب، وله التصانيف الكثيرة في التصوف منها «إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله. أنظر (الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية، ص: 403).

(1) عيسى، عبد القادر، حقائق عن التصوف، (مؤسسة الشام للطباعة والتجليد، ط 5 1993م/ 1414 هـ) ص: 34.

obeikandl.com

الله، فالخوف من الحق ﷻ: هو صفة المؤمنين وسمة الصالحين وطريق الخاشعين، من تمسّك به فاز، ومن ابتعد عنه خسر، بشَّر الله الخائفين منه بالأمن من عذابه وجعل جزاءه النّعيم في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41]، والثمرة المرجوّة من الخوف هي حصول الورع والتقوى، وبلوغ الحكمة المأمورون باتباع سبيلها في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

والحكمة كما قال مالك: (وإنّه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هي: الفقه في الله، وأمر يدخله الله في قلوب من رحمته وفضله).

وقال القاسمي في تفسير الحكمة:

قال كثيرون: الحكمة: إتقان العلم والعمل، وبعبارة أخرى: معرفة الحق والعمل به»(1).

فيكون المعنى المراد من قولنا: «**رأس الحكمة مخافة الله**» تحقّق إتقان العلم والعمل للحصول على التقوى والورع، هذا

(1) تفسير القاسمي: 1/ 245.

والله تعالى أعلم.

اللهم ارزقنا الصدق والإخلاص في القول والفعل والعمل، وتحلية النفس بالفضائل والترقيّ في مقامات الإحسان لنحظى بشهودك.

اللهم أنت مقصودنا ورضاك مطلوبنا، نسألك رضاك والجنّة لنراك ونعوذ بك من غضبك وسخطك والنّار، وأن تحشرنا في الفردوس الأعلى مع حبيبك وحبيبنا وقرّة أعيننا سيّدنا محمد ﷺ، آمين.

obeikandl.com